أبو تمّام[1]

للاستاذ انيس المقدسي
استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

ترجمة تاريخية

يؤخذ من المصادر التاريخية ان ابا تمّام ولد حوالي ١٩١ هـ . في قرية يقال لها جاسم وهي على ما ذكر ياقوت قرية تبعد عن دمشق ثمانية فراسخ على يمين الطريق الاعظم الى طبريا. ولا يعرف عن حداثته فيها شيء يذكر الاَّ انهُ قد يلاحظ مما نقله ابن خلكان وابن عساكر انهُ كان في صغره يعمل عند حائك او قزّاز في دمشق[2] . وكل ما يمكن استخلاصه من شتى الروايات انَّ والده رجل مسيحي اسمهُ تدوس العطّار فحرّف بعد اسلام الشاعر الى اوس . ويرجعون نسبه الى قبيلة طيّ ولذلك لقب بالطائي .وفي ديوانه مواقف يفاخر فيها بهذا النسب نذكر منها هنا قصيدته التي مطلعها — « تصدَّت وحبل البين مستحصد شزرُ » ومنها

وهل خاب من جذماه في اصل طيّءٍ ... عديُّ العديّين القلمّس او عمرُو
لنا جوهر لو خالط الارض اصبحت ... وبطنانها منهُ وظهرانها تبرُ
مقاماتنا وقفٌ على العلم والحجى ... فاُمردنا كهلٌ واشيبنا حبرُ

ويأخذ فيها بذكر كرام الطائيين وابطالهم وما كان لهم من غرر الوقائع ويختمها بقوله :

مساعٍ يضلُّ الشعر في كنه وصفها ... فما يهتدي الاَّ لاصغرها الشعر

والمجمع عليه انهُ انتقل وهو فتى الى مصر وكان يلازم مسجدها يخدم فيهِ اهل العلم والادب . فنشأ هناك ثم جاب الاقطار فزار بغداد وخراسان ونيسابور وبلاد الجبل والحجاز وارمينيا والموصل وسواها . وشعره مفعم بما يدل على كثرة تجواله في الاقطار ، وتحمله للمشاق والاخطار . واذا دققنا في ديوانه وسيرته ترجح لدينا انهُ هبط مصر يافعاً ففي قصيدته التي قالها في مصر مادحاً آل الرسول ومطلعها «اضنبة حيث استنَّت الكتب الغفرُ» ما يشير الى انهُ قالها وهو في السابعة عشرة واليك هذه الابيات منها

---

(١) يعني الاستاذ انيس المقدسي بوضع كتاب موضوعه (امراء الشعر العربي) جرى في كتابة فصوله على الطريقة الحديثة في استنباط سيرة الرجل من مقارنة المصادر والتدقيق في نقدها وتحليل قصائده وارجاعها الى العوامل النفسية واحوال البيئة التي يعيش فيها . ويسرنا ان نقدم لقراء المقتطف فصلاً من هذا الكتاب النفيس الذي ينتظر ظهوره قريباً (٢) وفيات الاعيان ١ صفحة ٣٠٥ وتهذيب التاريخ الكبير ٤ — ١٨

وان نكيراً ان يضيق بمن لهُ عشيرة مثلي او وسيلته مصر
وما لامرىء من قاتل يوم عثرة لعاً وخديناهُ الحداثة والفقر
وان الذي احذاني الشيب — للتي رأيت ولم تكمل لهُ السبع والعشر

فاذا تأملت البيت الاول شعرت ان قائله حديث العهد بمصر وانهُ اتخذها امّاً وسيلة للارتزاق. ويثبت لنا ذلك ما جاء في حسن المحاضرة للسيوطي من انهُ هبط مصره وهو في شبيبته»[1]. وكذلك ما اشار اليهِ عرضاً ابن خلكان وابن عساكر انهُ كان في دمشق يعمل عند حائك. وفي شعره ما يدل على ان حياته في مصر لم تكن على ما يرام فاكثر شعره فيها نفثات متبرّم يستثقل الاقامة في وادي النيل. وهذه قصيدتهُ اللامية شاهدة بذلك نظمها وقد مرَّ عليهِ خمسة أحوال في مصر فقال فيها —

بنفسي ارض الشام لا ايمن الحمى ولا ايسر اللعنا ولا اوسط الرمل
عدتني عنكم مكرهاً غربة النوى لها وطرٌ في ان تمرّ ولا تحلي

الى ان يقول:

اخمسة احوال مضت لمغيبه وشهران بل يومان ثكل من الثكل
وتمنعهُ من ان يبيت زماعه على عجلٍ ان انقضاء على رسل
لقد طلعتْ في وجه مصر بوجهه بلا طالع سعدٍ ولا طائر سهل
وساوس آمال ومذهب همة مخيمة بين المطية والرحل
نأيتُ فلا مالاً حويت ولم اقمْ فامتع اذ فُجعت بالمال والاهل
وكان ورائي من صرعة طيء ومعن ووهب عن امامي ما يسلي
فلم يك ماجرَّعتُ نفسي من الاسى ولم يك ماجرَّعت قومي من الثكل

والذي يحصّل من هذه الابيات انهُ كان قبل خمسة احوال ترك قريتهُ وجاء مصر منتجعاً الرزق فلم يلق ما كان يتوخّاه. ولم يحمله على البقاء فيها حتى الآن الاّ القضاء المعاكس ويفهم من ذلك ضمناً انه ترك اهله وفيه مطامع ولا تكون المطامع عادةً قبل ان يشرف المرء على البلوغ. فشاعرنا على ما يظهر حسن اليه الاسلام وهو في الشام ففعل ذلك مندفعاً بما فيه من الطموح وطلب العلى[2]. وظن انه ينال غايته في مصر فأمها ولضيق ذات يده وميله الى الادب لزم المسجد يخدم أهل العلم ويأخذ عنهم. وما زال كذلك حتى نبغ واشتهر فهجر مصر قاصداً كبار الرجال في العالم الاسلامي. وبلغ المعتصم خبره فحمله اليه الى سامرّا (سرّ من رأى) فلزمه ومدحه وكان في زمانه أمير الشعراء وحامل رايتهم.

(١) حسن المحاضرة ١ — ٢٤٠
(٢) وقد فعل ذلك بعض من كبار النصارى في عصره وبعده كآل القيني وآل ثوابة، وآل وهب وكانوا من رؤساء الناس وكانت دولتهم ناضرة وايامهم مشرقة. الفخري ١٨٢و١٣٧ والفهرست ١٣٥

ثم عينه الحسن بن وهب على بريد الموصل فقضى في هذا المنصب السنتين الاخيرتين من حياته وتوفي هناك[1]

شخصيته في شعره

لابي تمام مزيتان بارزتان . صبره على المشاق لبلوغ المنى وشدة عنفوانه واعجابه بنفسه . يضاف الى ذلك ميله الى الاسراف في المال والتقوى . فاذا قرأت ديوانه رأيته مفعماً بما يدل على انه نشأ مغامراً في سبيل الجاه والمال . وقد زادته كثرة اسفاره عزماً ومضاء فليس اذن من الغريب ان تسمعه يقول

ذريني على اخلاق الصمّ للتي هي الوفر أو سرب ترنّ نوادبه

اي دعيني — على ما فيّ من خلق شديد — اخوض غمرات الحياة فاما الغنى أو الموت.
وقوله من نفس القصيدة

ولكنني لم احو وفراً مجمّعا ففزت به الاّ بشمل مبدّد
ولم تعطني الايام نوماً مسكّنا ألذّ به الاّ بنوم مشرّد
وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد
فاني رأيت الشمس زيدت محبةً الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

نزعة في نفس الشاعر تعبّر لنا عمّا يختلج في نفوس البسلاء المغامرين الذين يأبون حياة الخمول فيقتحمون الاهوال ويخوضون الغمار طلباً للعلى والمجد

أليس بأكناف الجرير وفارس وقمّ واصطخر قرار رودّ
بلى ان ارض الله فيها ندوحة ومضطرب للفاتك المتجرّد

تلك روح قلقة كثيرة المطامع . وهي التي حملت شاعرنا على ترك قومه في الشام . ثم على ترك مصر والضرب في لجواز الارض . وقد صدق في وصف حاله اذ قال

ذات الثنايا الغر لا تتعرّضي عند الفراق بمقلتين وجيد
ما ابيضّ وجه المرء في طلب العلى حتى يسوّد وجهه في البيد

وانك لتكاد تمس صلابة نفسه في ابياته التالية —

لا انقر الطربَ القلاص ولا أرى مع زير نسوان اشد قيودي
شوق ضرحت قذاته عن مشربي وهوى اطرت لحامهُ عن عودي
ماي وضام العيس بين وديقةٍ مسجورة وتنوفة صيخود
حتى اغادر كلّ يوم بالفلا للطير عيداً من بنات العيد

وملخّص هذه الابيات اني لست من الذين يركبون العيس توصلاً الى طرب أو الى ملهى

(١) بعد هذه الترجمة نحصي الاستاذ المقدسي اهم ممدوحي ابي تمام وعدد ما قاله فيهم من القصائد

غرامي ولكنني رجل اسفار متمرس بقطع الفلوات المحرقة وكم تركت لطيورها نصيباً وافراً من نياقي . يشير بذلك الى صلابته واحتماله وشوقه الى المظالم . والكثير في شعره ينضح بهذه الروح المغامرة . حتى شعره في مصر وهو في اول عهده وقد قيده الدهر بقيود الفقر — تراه برغم ذلك ينم على نفس مرة طامحة . ومن قوله في ذلك

وطال تطوفي ارض مصر لحاجة   يقال لها أقبح بهاتي وأسمج
اقلب في اقطارها الطرف كي ارى   ولست براه ذاك عصمة ملتجي
فقنعني يأسي واعلم انني   مقود بحبل المقادير مدمج

اما عنفوانه فظاهر مما رووه عنه يوم قصد عبد الله بن طاهر امير خراسان . قالوا لما فرغ من انشاده بائيته التي مطلعها « اهنّ عوادي يوسف وصواحبه » نثر عليه الف درهم فاستقلها الشاعر ولم يمسها شيئاً بل تركها للغلمان يلتقطونها . فوجد عليه الامير وقال يترفع عن برّي ويتهاون بما أكرمته فلم يبلغ ما اراده منه بعد ذلك . واي عنفوان اشد من ان يقصد شاعر اميراً جليلاً كابن طاهر فيمدحه ثم هو يرى هبة الامير أقلّ من قدره فيترفع عن ان يمسها بيده ، وهذه الظاهرة الخلقية في شاعرنا تتجلى لنا ايضاً في خلق ابي الطيب المتنبي كما سنرى عند درسنا هذا الشاعر . وهي قد تهيب بالشاعر الى وزن نفسه بميزان ممدوحيه او الى التفاخر والتعاظم على زملائه ومناوئيه . خذ قصيدته التي قالها يمدح قاضي الدولة العباسية احمد بن ابي دؤاد ويعتذر اليه عن اساءة . وأولها

ارأيت ايّ سوالف وخدود   عنت لنا بين اللوى فزرود

وفيها يذكر فضل الممدوح وفضل قومه (اياد) ويقرن ذلك بمدح طيّ (قبيلة الشاعر) ويجعل اياداً وطيّاً متساويين في المحامد فيقول

كعب وحاتمٌ اللذان تقاسما   خطط العلى من طارف وتليد
هذا الذي خلف السحاب ومات ذا   في الحمد ميتة خضرم صنديد

ثم يتقدم الى الاعتذار بأبيات تدل على شدة نفسه ومنها

فاسمع مقالة زائر لم تشتبه   آراؤه عند اشتباه البيد
اسرى طريداً للحياء من التي   زعموا وليس لرهبة بطريد
كنت الربيعَ امامهُ ووراءه   قمرُ القبائل خالد بن يزيد
ما خالدٌ لي دون ايوب ولا   عبد العزيز ولست دون يزيد

والمتأمل في هذه الابيات يعجب من هذه العواطف التي تملي عليه ان يقول لممدوح عظيم يعتذر اليه . لم آتك رهبة منك بل خجلاً مما اتهمت به . وان مثلي في الاعتذار اليك مثل يزيد بن المهلب لما استجار من الوليد بأيوب بن سليمان بن عبد الملك وبعبد العزيز

ابن الوليد فشفعا له وما خالد الذي يشفع لي بأقل منهما ولا انا بأقل من يزيد بن المهلب

ومثل ذلك قوله من قصيدة يمدح بها محمد بن يوسف —

وكنت اذا ما زرتُ يوماً مسوَّداً سرحت رجائي في مسارح سؤدد

فان يجزل النعمى تثبه قصائدي وان يأب لم اقنع بأصوات معبد

اليس بأكناف الجزيرة وفارس وقمّ واصطخر قرار ارود

فكأنهُ يقول اني شاعر كبير النفس اقصد الامير العظيم فان كافأني بما يستحق مقامي كافأته بما يستحقهُ من القصائد والاَّ فاني اتحول عنهُ الى الضرب في آفاق الارض

اما تعاظمهُ بشعره فهو كثير في شعره كقوله

وسيارة في الارض ليس بنازح على وخدها حَزنٌ سحيقٌ ولا سهبُ

تذرُّ ذرور الشمس في كل بلدة وتمضي جموحاً ما يردُّ لها غرب

اذا أُنشدت في القوم ظلت كأنها مسرة كِبرٍ او تداخلها عُجب

مفصلة باللؤلؤ المنتقى لها من الشعر الاَّ انهُ اللؤلؤ الرَّطب

***

وقوله : خذها مغرَّبة في الارض آنسةً بكل فهم غريب حين تغترب

لا يستقي من حفير الكتب رونقها ولم تزل تستقي من بحرها الكتب

حسيبة من صميم المدح منصبها اذ اكثر الشعر ملقى ما له حسب

وقس على ذلك ما لا يسعه هذا المقام

على ان ابا تمام كان — على صلابة نفسه — موصوفاً بكرم النفس وحسن الاخلاق [١] وكان محبّاً للشراب والغناء لا يكاد يحصل على المال حتى ينفقهُ في سبيل المسرات . فهو في ذلك كأكثر شعراء عصره . ورغم ما نجده في شعره من الشدة الدينية (ولا سيما عند ذكره للروم) لا نجد في سيرته أو في شعره تمسكاً شديداً بفروض الدين . قال المسعودي كان أبو تمام ماجناً خليعاً وربما أداه ذلك الى ترك موجبات فرضه تماجناً لا اعتقاداً [٢] وبكلمة اخرى كان مستهتراً قليل المبالاة بما يتطلبهُ حسن الاعتقاد

خصائص الفنية

قال ابن رشيق القيرواني لا بدَّ لكل شاعر من طريقة تغلب عليه كأبي نواس في الخمر وأبي تمام في التصنيع والبحتري في الطيف الخ [٣] وقال الجرجاني في الوساطة كانت الشعراء

(١) نزهة الالباء للانباري ٢١٤ وابن عساكر ٤ — ١٨ الى ٢٦ (٢) مروج الذهب ٢ - ٢٥٣
(٣) العمدة ١ - ١٩٤

يجري على نهج من الاستعارة قريب من الاقتصاد حتى استرسل فيه ابو تمام ومال الى الرخصة فأخرجه الى التعدي وتبعه اكثر المحدثين [١]. وقال ابو الفرج الاصفهاني . وله مذهب في المطابق هو كالسابق اليه جميع الشعراء . وان كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه فان له فضل الاكثار والسلوك في جميع طرقه [٢]. ووصفه الامدي بقوله وشعره لا يشبه اشعار الاوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات والمعاني المولدة . ثم يقول فان كنت تميل الى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة فلا تلوي على غير ذلك فأبو تمام اشعر [٢]

هذا هو رأي جمهرة العلماء النقادين في شعر ابي تمام . والذي يطالع ديوانه ويدقق في تفهم معانيه يرى فيه ثلاث مزايا ظاهرة وهي : —

١ — تأنقه البديعي (وأكثر ما يظهر ذلك في الاستعارة والطباق والجناس)

٢ — تفننهُ المعنوي وهو ما يسميه البعض بالاختراع

٣ — شغفه بالاغراب — أو الغوص على ما يستصعب من الالفاظ والمعاني ولنبسط لك هذه المزايا واحدة واحدة

التأنق البديعي

لم يخلُ الشعر العربي في عصر من العصور من الاخذ بأسباب البديع او الصناعة اللفظية والمعنوية . كان ذلك منذ ايام الجاهلية . فقد عرف امرؤ القيس بسبقهِ الى الكثير من لطائف الوصف والتشبيه . وعرف زهير بتثقيف قصائده وتكرير النظر فيها وتنقيحها « وربما رصد اوقات نشاطه فتباطأ عمله » . ولذلك سميت الحوليات مبالغة في تأنقه وتصنعه . ومثله الحطيئة . وإذا راجعت شعر النابغة والاعشى وجرير والاخطل والفرزدق وأبي نواس وبشار ومروان ومسلم وسواهم من امراء الشعر الذين تقدموا ابا تمام وجدت في جميعهم أثر الميل الى الصناعة يتفاوت فيهم تفاوتاً يختلف باختلاف الشاعر وأحواله . قال ابن رشيق عن صناع الشعر القدماء «واستطرفوا ما جاء من الصنعة نحو البيت او البيتين في القصيدة بين القصائد يستدل بذلك على جود شعر الرجل وصدق حسه وصفاء خاطره . فاذا ما كثر ذلك فهو عيب يشهد بخلاف الطبع وايثار الكلفة وليس يتجه البتة ان يأتي من الشاعر قصيدة كلها أو اكثرها متصنع من غير قصد كالذي يأتي من اشعار حبيب والبحتري وغيرهما وقد كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها [٣] »

وقد كادوا يجمعون على ان مسلم بن الوليد هو اول من توسع في البديع وتبعه فيه جماعة

(١) الوساطة الاقني ١٥ — ١٠٢ (٢) الموازنة ٣ (٣) العمدة ١ — ٨٤

منهم ابو تمام روى ذلك الاصفهاني في سيرة مسلم بن الوليد وقال ان ابا تمام جعل شعره كله مذهباً واحداً فيهِ ونقل عن محمد بن يزيد قوله كان مسلم أول من عقد هذه المعاني الطريقة واستخرجها . وعن القاسم بن مهرويه أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد جاء بهذا الفن الذي سمَّاه الناس البديع ثم جاء الطائي بعده فتفنن فيهِ[1]

والحقيقة ما ذكرنا من ان انواع البديع منثورة متفرقة في اشعار المتقدمين ولكن مسلماً أكثر منها وكان يحتذي حذو العتابي وكان هذا يحتذي حذو بشار[2] ثم قام ابو تمام فزاد على مسلم . وكان العصر الذي نشأ فيهِ شاعرنا (أعني صدر الدولة العباسية) عصر انتقال في الادب من الطريقة البدوية القديمة التي عرف بها صدر الاسلام إلى الطريقة الحضرية المولدة طريقة التبسط والتأنق . والظاهر ان ابا تمام كان من الشعراء الذين تأثروا بهذه الطريقة فاختط لنفسهِ مسلكاً خاصّاً وصار على ما يرى بعضهم امام هذه الصناعة . وفي شعره من الشواهد على ذلك ما لا يحتمل المقام الاسهاب بهِ فنكتفي هنا بالقليل منها — قال من قصيدة

تلومين ان لم اطو منثور همة ... طوت عن لساني مدح كل مزبّد[3]
لبزّتك اثواب البصائر عزّة ... كستك ثياب الزجر من كل مرشد
كانك لا تدرين طعم معيشة ... مجّ دماً من طعم ذل التعبّد
فعوني قناع الصبر اني راحل ... الى بحر جود غامر الفضل مزبد
امات حياة الوعد منهُ نوافل ... من الجود اضحت للعفاة بمرصد

وقال مادحاً احمد ابن ابي دؤاد

ما زلت ارقب تحت انياء المنى ... يوماً بوجهٍ مثل وجهك ابيضا
لولاك عزّ لقاؤه[4] فيما بقي ... اضعاف ما قد عزّني فيما مضى
قد كان صوّح نبت كل قرارة ... حتى تروّح في ثراك وروضا
اوردتني العِدَّ الخسيف وقد أرى ... اتبرض الثمد البكيّ تبرّضا[5]
اما القريض فقد جذبت بضبعه ... جذب الرشاء مصرّحاً ومعرّضا
احببتهُ اذ كان فيك محبّباً ... وازددت حبّاً حين صار مبغّضا
قد كانت الحال اشتكت قسوتها ... اسواً الى امراره ان ينقضا
ما عذرها ألاّ تفيق ولم تزل ... تُريضها بالمكرمات ممرّضا

ولهُ متغزلاً :

(١) مهذب الاغاني ٨ — ٢٠ (٢) الباق واثنين ١ — ٢٤
(٣) المزبد اللئيم (٤) الضمير يرجع الى الخليفة (٥) العد الخسيف اي النبع الوافر الماء . اتبرض الثمد البكي اي اطلب الماء القليل هنا وهناك

لا انت انت ولا الديار ديار خف الهوى وتولّت الاوطار
كانت مجاورة الطلول واهلها زمناً عذاب الورد فهي بحار
ايام تدمي عينه تلك الدمى فيها وتقمر لبّه الاقمار
اذ لا صدوف ولا كنود اسماها كالمعنيين ولا نوار نوار[1]
بيض فهن اذا رمقن سوافراً صور . وهنّ اذا رمقن صوار

وقال من قصيدة في ابي دلف العجلي

تكاد مغانيه تهشّ عراصها فتركب من شوق الى كل راكب
اذا ما غدا اغدى كريمة ماله هدياً ولو زفّت لالأم خاطب
يرى اقبح الاشياء اوبة آمل كسته يد المأمول حلّة خائب
واحسن من نور تفتّحه الصبا بياض العطايا في سواد المطالب
اذا الخيل يوماً لجّم وحوطها بنو الحصن نجل المحصنات النجائب
فان المنايا والصوارم والقنا اقاربهم في الروع دون الاقارب
جحافل لا يتركن ذا جبرية سليماً ولا يحربن من لم يحارب
يمدون من ايد عواص عواصم تصول باسياف قواض قواضب

وامثال ذلك كثيرة في شعره بل هي مذهبه العام وقد قاده شغفه بذلك الى الاسراف والخروج عن جادة المعقول حتى رماه الكثيرون باسهم النقد الحادة . قال الجرجاني ان ابا تمام اسلم نفسه للتكلف يرى انهُ ان مرَّ على اسم موضع يحتاج الى ذكره او يتصل بقصة يذكرها في شعره من دون ان يشتق منهُ تجنيساً او يعمل فيه بديعاً فقد باء باثم واخل بفرض حتم[2] . وقال الآمدي في الموازنة بعد ان ذكر آراء المنحرفين عن ابي تمام «كانهم يريدون اسرافه في طلب الطباق والتجنيس والاستعارات واسرافه في التماس هذه الابواب وتوشيح شعره بها حتى صار كثير مما اتى من المعاني لا يعرف ولا يعلم غرضه فيها الاَّ مع الكد والفكر وطول التأمل ومنهُ ما لا يعرف معناه الاَّ بالظن ولو كان أخذ عفو هذه الاشياء ولم يوغل فيها ولم يجاذب الالفاظ والمعاني مجاذبة ويقتسرها مكارهةً وتناول ما يسمح به خاطره وهو بجمامه غير متعب ولا مكدود وأورد من الاستعارات ما قرب في حسن ولم يفحش. واقتصر من القول على ما كان محذواً حذو الشعراء المحسنين ليسلم من هذه الاشياء التي تهجن الشعر وتذهب ماءه ورونقه — ولعل ذلك ان يكون ثلث شعره او اكثر — لظننتهُ كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر اكثر الشعراء المتأخرين[3]» «لها تتمة»

(١) صدوف وكنود ونوار اسماء (٢) اسرار البلاغة ١٠ (٣) الموازنة ٥٥ — ٥٦